رغم أنف إبليس !!

٣١ عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : قال إبليسُ : أىّ رَبِّ ، لاَ أزَالُ أُغْوِى بَنِي آدمَ ، مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُم فى أَجْسَادِهم .

فقال الربُّ عزَّ وَجلَّ :

« فَبِعزَّتي وَجَلالى لاَ أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرونى »(١)

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ(٢) ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩، ٤١، ٧٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/ ٣٣٢) ، والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤/ ٢٦١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى فى تلخيصه. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبرانى فى الأوسط ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى» .

(٢) صَوَّره: جعل له صورة مُجسَّمة. وتصوَّر: تكوّنت له صورة وشكل. (المعجم الوجيز ـ مادة: صور).

هذه هى قصة إبليس مع آدم ، ذكرها الحق سبحانه فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكنها فى كُلِّ موضع تأخذ لَفْتةً جديدة ولَقْطة جديدة ، وقد جاءتْ قصة خَلْق آدم بكُلِّ جوانبها فى القرآن سبْع مرات ؛ لأنها قصة بَدْء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان.

فالإنسان تلفَّتَ ليجد نفسه فى كون مُعَدًّ له على أحسن ما يكون ، ولم يجئ الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسانُ على الكون ، وظلَّ السؤال وارداً عن كيفية الخَلْق .

ولكن الحق سبحانه قد حسم هذا فقال:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١)﴾ [الكهف]

فالإنسان لا يدرى كيف تَمَّ الخَلْق ، ولا ما هى مراحله ، إلا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها ، فما دَامُوا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ولا خَلْق أنفسهم ، فلابُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله ، فما يُنبِئنا به الله هو الحقيقة ، وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف .

وقصة العَداء بين آدم وإبليس هى من هذا القبيل الذى يجب أن نأخذه عن الله ، فالحقُّ سبحانه أصدر أمره للملائكة ليسجدوا لآدم ، ولابُدَّ أن نعرفَ أن السجودَ لآدم هو إطاعةٌ لأمر الله ، وليستْ عبادةً لآدم .

(١) العضد: المعاون والمساعد والمعين. اعتضد به: استعان به وتقوّى. (المعجم الوجيز ـ مادة: عضد).

فالله سبحانه هو الذى أمر الملائكة بالسجود ، ولم يأمرهم بذلك آدم ، ولا يحقُّ له أنْ يأمرهم ، فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه .

مَنْ أطاعه كان عابداً ، ومَنْ لم يُطِعْهُ كان عاصياً ، ومَنْ رَدَّ الأمر على الآمر كان كافراً .

والأمر بالسجود لآدم لم يشمل الملائكة كلهم ، بل خُصّ به الملائكة الذين لهم مُهِمة مع آدم ، هذه المهمة قد أوضحها الحق سبحانه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

[الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ(١) أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات]

إذن: هناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله ، وكل قَوْل يقوله ، وكل فِعْل يفعله ، بل ويكتبون هذه الأفعال ، ومنهم مَنْ يحفظه من الشياطين ، ومنهم مَنْ يُنفِّذ أقدار الله فى الأرض.

هؤلاء جميعاً لهم مُهمة مع الإنسان ، ولكن الأمر بالسجود لم يشمل

(١) قال على بن أبى طالب: المدبرات أمراً : الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره. وعن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل ، وملك الموت، وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات. وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر. (ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ٨/ ٤٠٥).

أولئك الملائكة العَالين من حملة العرش وحُرّاس السماء وغيرهم ممَّنْ ليستْ لهم مُهِمة مع الإنسان .

ولذلك عندما رفض إبليسُ السجودَ قال له الله تعالى :

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والمقصود بالعالين: الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته ، والذين يقول فيهم الحق سبحانه:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١)﴾ [الرعد]

والملائكة لا يعصُونَ الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون.

وإنْ تساءل أحدٌ : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضِمْن الحديث عن الملائكة ؟

نقول: هَبْ أن فرداً مُخْتاراً من الإنس أو الجنّ التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يَعْصِ. أليستْ منزلته تكون مثل المَلَكِ ، بل

(١) أي: ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٣): «أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكاتبان ».

أكثر من المَلَك ، لأنه يملك الاختيار ؟

ولذلك كانوا يُسمُّون إبليس «طاووس الملائكة» أى : الذى يزهُو فى مَحْضَر الملائكة ، لأنه ألزمَ نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفَّذها ، فصارَ لا يَعْصى الله ما أمره ، ويفعل ما يُؤْمر .

وصار إبليسُ يزهُو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأنْ يُطيعَ ، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأنْ يَعْصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزةً من بين الملائكة ، وبلغ من تميّزه أنه يحضر حُضُور الملائكة .

فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغُ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة :

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ .. (١١)﴾ [الأعراف]

وكان أَوْلَى به أنْ يُسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف[1] ذلك. وَهَبْ أنه دون الملائكة ، وما دام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكُنْ من الأَجْدر به ـ وهو الأَدْنى ـ أن يلتزمَ بالأمر؟ لكنه لم يفعل ، ولأنه من الجن فقد غلبتْ عليه طبيعة الاختيار.

فسبحانه قد أمر الملائكة ، وكان موجوداً معهم إما بطريق العُلُوِّ ؛ لأنه فَاقَ الملائكة وأطاع الله وهو مُخْتار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدُّنُوِّ ؛ لأن الملائكة أَرْفَع من إبليس بأصل الخِلْقة والجِبلّة ، وعلى أىِّ وَضْع من العُلُوِّ

(١) استنكف من الشىء وعنه: أنف وامتنع. (المعجم الوجيز ـ مادة: نكف) .

والـدُّنُـوِّ كان على إبليس أنْ يسجدَ .

ولكن إبليسَ قال فى الردِّ على ربِّه :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال أيضاً: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]

فمـعصيـةُ إبليسَ كانت فى القـمة ، لأنه رَدَّ الأمر على الآمـر، وقال : لن أُطيعَ ، ولن أَسْـجُـدَ لآدم لأنِّى خَيْـر منه ، هو من طيـن ، وأنا من نار ، فكأنه لم يَرْضَ بحُكْم الله سبـحانه وتعـالى ، وأراد أن يُعدِّله ، وهذه معـصية فى القـمة ، جعلت الله ـ تبارك وتعالى ـ يطرد إبليسَ من رحمته ، ويَصفه بأنه رجيم [1].

فإبليس قد تأبَّى على مَنْ حكَم بالحُكْم ، ولذلك طرده الحق سبحانه من الجنة ، وصار مَلْعوناً .

وإبليسُ ساعة رفضه تنفيذَ أمر السجود كان يمتلئ بالكبر والغرور ، ففى لحظة الكبر نـسى إبليس كل شىء ، واندفع فى معصـيته يـملؤه الزَّهْو ، وأصرَّ على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

والحقُّ سبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله ـ وهو يعلم أَزَلاً أن إبليسَ قد امتنع باقتناع لا بقَهْر ، ولذلك قال إبليس:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

(١) رجمـه : لعنه أو طرده بالرمى بالحجـارة ، ومنه الرجيم ، فعيل بمعنى مفـعول ، أى : ملعون بالقـول أو مطرود مرمىّ بالحجارة. (القاموس القويم ١/٢٥٨) .

فكأنَّ المسألة دارتْ فى ذهنه لِيُوجِدَ حيثيةً لعدم السجود ، ولا يصحّ فى عُرْفه الإبليسى أنْ يسجدَ الأعلى للأدْنَى ، فما دام إبليسُ يعتقد أنه خَيْر من آدم ، ويظنّ أنه أعلى منه ، فلا يصحّ أنْ يسجدَ له ، وهو أعْلَى منه ، لماذا ؟

فهو اعتقد مُخْطِئاً أن النارَ لها عُلُوٌّ على الطين ، وهذا خطأ ؛ لأن الأجناسَ حين تختلف ، فذلك لأن لكل جنس دَوْرَه ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، فالنارُ لها مُهِمة ، والطين له مُهِمة ، فالنار لا تستطيع أن تُؤدِّى مُهِمة الطين ، فلا يمكن أنْ نزرعَ فى النار .

إذنْ: فالخيريةُ تتأتَّى فى الأمرين معاً ، ما دام كل منهما يُؤدِّى مُهِمته ، ولذلك لا تَقُلْ : إن هذا خَيْر من هذا ، إنما قُلْ : عَمَلُ هذا أحسنُ من عَمَل هذا ، فكلُّ شىء فى الوجود حين يُوضَع فى منزلته المرادة منه يكون خَيْراً .

ولذلك أقول: لا تَقُلْ عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطَّاف : إن هذا عُود أعوج ؛ لأن مهمة الخُطَّاف تقتضى أن يكونَ أعوج ، وعِوَجه هو الذى جعله يُؤدِّى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى مُتسَاوى المهمة .

ولكن إبليس قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر، للكفر، حين أعرض عن أمر الله ، وأراد أنْ يُعدِّل مراد الله فى أمره ، وكأنه يُخطِّئ الحقَّ سبحانه فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر.

إذن: فالحقُّ سبحانه يُوضِّح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا

أن تميّزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعلَ الأدْنى يتحكَّم فى الأعلى ، لأنها إرادة مَنْ عنصرَ العناصر .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف]

وكلمة (فاهبط) تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى : أنك لَسْتَ أهلاً لهذه المنزلة ، ولا لتلك المكانة . هذا ما تدلُّ عليه كلمة (فاهبط) ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغار هو الذُّل والهوان ؛ لأنه قابلَ الأمرَ باستكبار ، فلابُدَّ أن يُجازى بالصَّغار. خرج إبليس من الجنة ، وفقد منزلته ومكانته التى كانت له بين الملائكة ، ولُعِن وطُرِد من رحمة الله إلى يوم الدين ، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص]

وكان ذلك بسبب عدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم ، فصارت عداوة بينه وبين آدم ؛ لذلك : طلب إمهاله وإنظاره إلى يوم الدين ، فقال:

﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف]

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يَشْفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطَّرْد والهبوط ؛ ولذلك أصرَّ على أنْ يجتهدَ فى أنْ يُغوِى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً .

ولذلك قال إبليس :

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧)﴾ [الأعراف]

والإغواء : إغراء بالمعصية. فكأن الشيطانَ يريد أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يُغْوِ ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يُغوِى وإنما يهدى ، لأن الله لو خلقه مُرْغماً مَقْهوراً ما أعطاه فرصة أنْ يختارَ كذا أو يختارَ كذا ، فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية.

وقد بدأ إبليس بِغُواية آدم عليه السلام ، فآدم عاش فى جنة تعطيه مُقوِّمات حياته بلا تعب وبلا عمل ، وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات ، وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان ، ما عدا شجرة واحدة[1] حرَّمها الله عليهما .

(١) اختلف العلماء فى هذه الشجرة على عدة أقوال ذكرها ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٩) :
ـ الكرم (العنب). قاله ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.
ـ السنبلة . قاله ابن عباس أيضاً .
ـ البر (حب القمح) قاله ابن عباس أيضاً .
ـ النخلة . قاله أبو مالك .
ـ التينة. قاله مجاهد .
ـ الحنطة (القمح). زعمته اليهود .
قال ابن كثير: «فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة. قال الإمام ابن جرير الطبرى رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله عز وجل نَاؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده =

وكـانت هذه الشجـرة هى بداية الخطيـئـة ، بدأ إبليس يُغرِى آدم وحـواء على المعصية.. كيف ؟

حاول إقناعهـما بأن عدمَ الأكل من هذه الشجرة.. سـيحرمهمـا من خير كبير .. قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا[1] وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

[الأعراف]

لقد همس الشـيطان ، وأوحَى لهما بأن الحق سبحـانه أراد ألاَّ تقربَا هذه الشـجرة ؛ لأن مَنْ يأكل منهـا يصـير مَلَكاً أو خـالداً ، ولم يُمـحِّص أى منهمـا كلمات الشيطان ليعرفَ أن كَيْده كان ضعـيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه ما دام قد عرف أن مَنْ يأكل من هذه الشـجـرة يصيـر مَلَكًا أو يبـقى من الخـالدين ، فلمـاذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكًا أو خالداً ؟

وفى هذا دَرْسٌ يُبيِّن لنا أن مَـنْ يُزيّن له ويتصدَّى له أحـد بالإغواء يجب عليه أنْ يُمحِّص إلى أىِّ غواية يسير، وأنْ يُدقِّق فى نتائج ما سوف يفعل .

= دليلاً على ذلـك فى القرآن ولا من السنة الصـحيحـة، وقد قيـل: كانت شجـرة البر، وقـيل: كانت شجرة الـعنب، وقيل: كانت شجـرة التين. وجائز أن تكون واحدة مـنها ، وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم» .

(١) السـوءة: ما يقبـح إظهاره ، وينبـغى سـتره. وجمـعها سـوءات. وهى العورات. (الـقاموس القـويم ١/ ٣٣٤).

وفى إغواء آخر لآدم :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[1] (١٢٠)﴾ [طه]

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للإنسان من أكثر من زاوية ؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة ، مَنْ يأكل منها يكون مَلَكًا ، أو يكون خالداً.

وكان الإغواء الثانى أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكًا لا ينتهى .

إذن: فإبليس يُصَوِّر للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير ، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ ، لقد أكل آدم وحواء من الشجرة ، فلم يخلدا ولم يَأتِ لهما مُلْك لا ينتهى ، بل ظهرت عوراتهما وعرفا أن إبليس كان كاذباً ، وأن الله سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير.

ولكن الشيطان يأتى ويُزيِّن للإنسان طريق الباطل ، ولو أن آدم كان قد حَكَّم عقله لعرفَ كذبَ وَسْوسة إبليس ، فإبليس كما يَدَّعى كان يدلُّ آدمَ على شجرة الخُلْد ، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخُلْد فعلاً ، لما طلبَ إبليسُ

(١) بلى الثوب: رثّ. وبليت الدار: فنيت. (المعجم الوجيز ـ مادة : بلى). وبلى الملك : زال .

من الله تبارك وتعالى أن يُبقى على حياته إلى يوم القيامة ، بل لأكلَ من الشجرة ونال الخُلْد .

ولكن إبليسَ دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليُوقِع آدمَ فى المعصية ، وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضاً ، ولو أن أبناء آدم حَكَّموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مُسْبقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أنْ يُبقِيَه إلى يوم القيامة لينتقمَ من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية .

لو تنبَّهنا إلى ذلك لأخذنا حِذْرنا ، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب .

وقد دخل إبليس ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله ، وأن الله عزيز لا يحتاج لخلْقه ، ولا يضرُّه سبحانه وتعالى مَنْ كفر، ولا يزيد شيئاً فى مُلْكه مَنْ آمن ، استغلَّ إبليسُ عِزَّة الله فى استغنائه عن خَلْقه ، فقال كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

فإبليس دخل إلى غواية بنى آدم بِعزَّة الله سبحانه وتعالى عن خَلْقه ، فلو أن الله أراد خَلْقه جميعاً مهديِّين ما استطاع إبليس أنْ يتقدَّم ناحية واحد منهم.

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى للإنسان حَقَّ الاختيار ، ولو شاء

لجعله مَقْهوراً على الطاعة كباقى الخَلْق من نقطة الاختيار هذه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[1] ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

إذنْ: فاللهُ سبحانه وتعالى بيَّن لنا طريقَ الهدى وطريقَ المعصية ، ثم ترك لَنا أنْ نختارَ طاعةَ الله ورحمته ، أو معصية الله وعذابَه .

ولكى نتقى الشيطانَ فى حياتِنَا شرحَ لنا القرآنُ الكريم كيف سَيُغوى إبليس بنى آدم :

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ[2] لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤١٢٣): «قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس، من ربكم الحق ، فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلىّ من ذلك شىء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد. أى : إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة».

(٢) عن سبرة بن أبى الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك. قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: فعصاه وجاهد». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٣) والنسائى فى سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (١٦٠١ ـ موارد الظمآن) من حديث سبرة بن أبى الفاكه .

أى : أن إبليس لا يجتهد فى إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف كُلَ ما أمر به الله ، فالنفس الأمّارة بالسُّوء لها شيطانها ، وهى ليستْ محتاجة إلى إغواء ؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك ، فإن إبليس لا يذهب إلى الخمارات وبيوت الدعارة ، ويبذل جَهْداً فى إغواء مَنْ يجلسون فيها ؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هذه الأماكن هو من شياطين الإنس .

ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبذل معهم كل جَهْده وكل حِيَله ليصرِفَهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بُدَّ أن نتنبه إلى أن إبليسَ لم يقُلْ : لأقعدنَّ لهم على الطريق المعْوَج ، فالطريق المعْوَج بطبيعته يتبع الشيطان .

فإبليس يريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغرِيهم بالمال الحرام ، وما دام الشيطان سيُغوى وسيُضِل الغير فسيختار للغواية مَنْ يكون فى طريق الهداية ، أما مَنْ غَوى باختياره وضَلَّ بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده .

وتلك ظاهرة تحدثُ للناس حينما يجدُّون ويجتهدون فى الطاعة، فالشابّ الطائع الملتزم يحاول الشيطانُ أنْ يُخَايلَه ليصرِفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطانَ يتلصَّصُ على دين الإنسان ، فهو كاللصِّ ، واللصُّ لا يحوم حول بيتٍ خَرِب ، إنما يحوم اللصُّ حول بيتٍ عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة ، فيقول الواحد منهم : حينما أُصلِّى يأتى لى الوسواس ، ويُشكِّكنى فى الصلاة ، نقول

له : نعم ، هذا صحيح[1] .

وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن هذا معناه أن الشيطان يعلم أن عملك مقبولٌ ؛ ولذلك يحاول أنْ يُفسدَ عليك الطاعة ، لأنك لو كُنْتَ فاسدًا من البداية ، ووقفتَ للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس ، ولكن الشيطانَ يريد أن يُفسِد عليك الطاعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ[2] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾

(الأعراف)

فمعنى (استعذ) أى : فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أنْ يتغلغلَ فيك ، وفى دمك[3] ، وفى خواطرك ، وهو القادر على مَنْعه .

---

(١) «عليك رحمك الله أن تحضر قلبك فى صلاتك جهد استطاعتك ومبلغ طاقتك ، وألا تصرفه هاهنا ولا هاهنا ، وألا تمر به هكذا ولا هكذا ، وأن تدفع عنه الخواطر المائلة به ، والأحاديث الشاغلة له ، وأن تسمع ما تقرأ ، وتعقل ما تفعل ، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت ، ولا يكتب لك منها إلا ما فيه حضرت» قاله أبو محمد عبد الحق بن الخراط الإشبيلى فى كتابه «الصلاة والتهجد» من تحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ طبعة دار الوفاء ـ المنصورة ١٩٩٢ م

(٢) نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسُه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . قال الزجاج : معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال ، فاستعذ بالله من شرّه وامْضِ على حكمك . (لسان العرب ـ مادة : نزغ).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ».

قال النووى فى شرحه : « قال القاضى وغيره : قيل هو على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجرى فى باطن الإنسان مجارى دمه . وقيل : هو على الاستعارة ، لكثرة إغوائه ووسوسته ، فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارق دمه . وقيل : يلقى وسوسته فى مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب . والله أعلم » .

وحين تقـول : « أعـوذ بالله من الشيـطان الرجـيم » بفـزع والتجـاء إليه ـ سـبحـانه ـ فـإنه جَلَّ شـأنهُ ينقذك مـنه ، وإنْ كنتَ تقرأ الـقرآن ، ثم جـاء لك الخـاطر من الشـيطان فـقُلْ « أعـوذ بالله من الشـيطان الرجـيم » فـإذا قُلْتَ هذا فكأنك نبَّهتَه إلى أنك أدركتَ من أين جاءتْ هذه النَّزْغة : مرة و اثنتين و ثلاثة.

حينئـذ يقـول الشـيطان لنفسـه : إن هذا المـؤمـن حَاذِق فَطِـن وحَـذِر ، لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حـنيفة ، وقـد شُهِر عنه الفُـتْيا ، وذهب إليـه سائل يقول :

ضاع منِّـى مال فى أرضٍ كنتُ قـد دفنتُه فـيها ، ولا أعـرف الآن مكانه ، دُلَّنى عليه أيُّها الشيخ ؟

وبطبيعة الحال ، كان هذا السؤال فى غـير العِلْم ، فقال أبو حنيفة : يابُنىَّ ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنِّى أحتـال لك ، إذا جاء الليل فَقُمْ بين يدىْ ربِّك مُـصلِّياً هذه الليلـة ، لعلَّ الله سبـحانه وتعـالى يبـعث لك جُنْدًا من جُنوده يقول لك عن مكان مالك.

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يُقـبل ضاحكًا مُبْتسمًا قائلاً : يا إمام لقد وجدتُ المال . فضحك أبو حنيفة وقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتِمَّ ليلتك مع ربِّك ، وسيـأتى ليُخبرك ، فهلاَّ أتمـمتَها شُكْرًا

لله ، هيا قُمْ إلى الصلاة .

إذن : فقد عرف الشيطان كيف يقعد ، وكيف يُقسِم ، فقد استطاع أنْ يأتى بالقسم الذى يُعينه على مهمته ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ (ص)

واستدرك على نفسه أيضًا ، فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ (ص)

لأن الذى يُريده الله مَهْديًا لا يستطيع الشيطان أن يُغويه ، لأنه لا يناهض ربّنا ولا يُقاومه ، إنما يناهض خَلْق الله ، ولا يدخل مع ربِّنا فى معركة ، إنما يدخل مع خَلْقه فى معركة ، ليس له فيها حُجَّة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أنْ يُرغِمك على الفِعْل ، وإما أن يُقنعك لتفعلَ أنت بدون إرغام .

وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟

لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾

(إبراهيم)

والشيطانُ لا يترك سبيلاً إلا سلكه لإغواء بنى آدم ، لذلك يقول : « أىْ رَبِّ ، لا أزال أُغْوِى بنى آدمَ ، ما دامتْ أرواحُهم فى أجسادهم » .

والقرآن الكريم يحكى لنا قوله :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف)

فإبليس يأتى لبنى آدم من الأمام ، ومن الخلف ، ومن اليمين ، ومن اليسار .. أربع جهات يأتى الشيطان لابن آدم منها :

* والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعًا هو « الدار الآخرة » وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشككهم فى حكاية الآخرة ، ويُشككهم فى البَعْث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دارٍ أُخرى ، سيُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ولذلك يعرض الحق سبحانه وتعالى قضية البعث عَرْضًا لا يجعل للشيطان مَنْفذًا فيها ، فيُوضّح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أوّلاً ، لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم(١).

إنه سبحانه عندما يُبين للناس أن الإعادة أهونُ من البداية ، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جَلَّ شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كُلُّ الأعمال ، فليس لديه شىء سهل وهيِّن ، وآخر صَعْبٌ وشاقّ .

(١) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم)، ويقول تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (طه) ، قال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٣٠).

* والشيطان يأتى ـ أيضًا ـ من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضَيْعتهم ، فيُوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء .

وفساد أُنَاسٍ كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس مَنْصبًا كبيرًا ، وقد كَبِرت سنّه ، ويقبل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن ، إنْ كنتَ تخاف عليهم حقّاً فأمِّن عليهم فى يَدِ ربِّهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ (النساء)

* ويأتى الشيطان من اليمين لِيُزهِّد الناس ، ويَصْرِفهم عن العمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين .

* ويأتى الشيطان عن شمائلهم ، لِيُغرِيهم بشهوات المعصية .

ولماذا لم يَأتِ الشيطانُ للإنسان من فوق ومن تحت ؛ لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مُسْتغيثًا ومُسْتجيرًا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة ، فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد(١) ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه .

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ (يوسف)

ويقول أيضًا :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الأنعام)

وما دام الشيطان عدو لك ، فلابد أيها الإنسان أن تتنبه ، فالله عمل لك حادثة الامتناع عن السجود لآدم حتى يُربّى فيك مناعة من الشيطان ، فتتذكر عداوته ، ولا تتبع خطواته أبدًا ، بدليل أنه تربَّصَ ببنى آدم .

قال تعالى :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الإسراء)

وكلمة (لأحتنكن) الاحتناك له مَعْنَيان :

الأول : الاستئصال . ومنه قولهم: احتنكَ الجرادُ الزَّرْع أى استأصله .

الثانى : وهو القَهْر على التصرف ، وهو مأخوذ من معنى اللجام الذى يُوضع فى حنَك الفرس أو الحمار ، ويتحكم فيه ، وعن طريقه يتم توجيهه يمينًا أو شمالاً ، أو توقيفه عن السَّيْر.

---

(١) احتنك فلانًا : استولى عليه واستماله إليه . وقول الشيطان فيما رواه رب العزة فى قرآنه : ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الإسراء) أى : لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . (القاموس القويم ١/ ١٧٥).

فالاحتناك إما أن يكون استئصالاً للذات ، أو قَهْرًا لحركتها ، ولكن لأن إبليس يعلم حَجْمه وقَدْره ، فكما أقسم بعزة الله تذكَّر قدرته سبحانه ، وأنه إذا أراد إخلاص عبدٍ لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه ، فقال :

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ (الإسراء)

وهذا القليل هم الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته ، فلا يستطيع الشيطان أنْ يقربَهم ، وقد أقرَّ الشيطانُ بذلك .

وقال له الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾ (الإسراء)

اذهب ، أى : مطرودًا مُبْعداً ، فالذين ستأخذهُم وتحتنكُهم وتتصرف فى حركتهم فإن جهنم جزاؤكم ، أى هم والشيطان لأنه معهم ، لكن إبليس كان يظنُ أن الله سيقول له : فإن جهنم جزاؤهم ، وهو ليس معهم ، لماذا ؟

قال : لأننى أُنفِّذ أوامر الله ، لأنه قال لى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ(١) عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ(٢) وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾ (الإسراء)

---

(١) أجلب عليهم : اجمع عليهم وتوعَّدهم بالشر . (لسان العرب ـ مادة : جلب).

(٢) رجل يرجل : مشى على رجليه ولم يكن له ما يركبه . والمقصود ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ .(٦٤) [الإسراء] أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . (القاموس القويم ١/ ٢٥٧).

حتى لا يظن إبليس أنه مأمور من الله بالإغواء قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾ (الإسراء)

أى : أن إبليس سيدخلُ النارَ معهم ؛ لأن مَا يقوم به من إغواءٍ لم يأمره به أحد ؛ لأن الأمر كما قُلْنا طلب أعلى من أدنى ليوقع فعلاً أو يُنفذه ، فلا يظنّ إبليس أنه ينفذ أوامر الله بإغواء عباده ، بل يجب أن يعلم أن هذه ليست أوامر ، ولكنها تهديد من الله له بأن يفعل ما فى وُسْعه ، فلن يكون فى مُلْك الله إلا ما أراد .

فيقول له الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ... (٦٤) ﴾ (الإسراء)

أى : استخفّهم واخْدَعْهم ووَسْوِس لهم بصوتك ، أو بكُلِّ صوت شرير ، سواء كان من جنودك أو من شياطين الإنْس .

ومعنى (أجلب) : أى صِحْ بهم . والجلبة هى الصوت الشديد ، هذا الصوت يأخذ شيئًا من انتباه الخَصْم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فتستطيع أن تنقضَّ عليه .

فمعنى (أجلب عليهم بخيلك) أى : اركبْ خيلك ، وأطلِقْ صوتك ، حتى تُفزعهم ، والإفزاع يأخذ جزءًا من الإدراك ، فيعطل الخصم عن الإدراك فتغلبه .

فالحق سبحانه هدَّدَ إبليس بأن يستفزَّ الناس بصوته ، وأن يجلب عليهم بخَيْله ورَجْله ، أى سلاح الفرسان ، وسلاح المشاة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ (الإسراء)

ومعنى مشاركة الشيطان لهم فى الأموال هى أنْ يُزيّن لهم المال الحرام ، فيكسبوه من حرام ويَصْرفوه فى الحرام .

وكذلك مشاركته لهم فى الأولاد تكون بتزيين الفاحشة ، فالولد المفهوم فيه طهارة النسب يأتى الشيطان لأبيه ويُزيّن له الحرام ، فيجعله يرتكب الفاحشة .

وحتى إن كان ابنه من صُلْبه ومن حلال ، ومولود على الفطرة يُزيّن له الشيطان أنْ يُهوِّده أو يُنصِّره ، أو يجعلهم يقتلون أولادهم ، خشية الفقر أو العار .

وليعلم بنو آدم أن إبليس سيقف فى يوم المحاجّة يوم القيامة أمام الذين أغواهم واستفزَّهم بصوته ، وأجلب عليهم بخيله ورَجْله وشاركهم فى الأموال والأولاد ووعدهم ، يأتى يوم القيامة ويقول لهم ما رواه القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي

وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالشيطان يحاول أن يُبرِّىء نفسه رغم علمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ، لذلك يحاول أنْ يُلصِق التهمة بمَنِ اتبعوه .

فهم قد أشركوه مع الله فى الطاعة ، حين استسلموا لغوايته ، ولم يكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسم بعزة الله ألاَّ يُغويَهم ، وكُلٌّ من هؤلاء نفَّذ ما أغواهم به ، فناداهم واستجابوا ، وناداهم الله فَعَصَوا أو كفروا ، وصاروا مثله . فقد سبق أن أمره الله وعصاه .

لذلك كان قول الحق سبحانه :

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا(٢) إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٣) مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وهذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف ، كما فتن أبوَيْنَا فأخرجهما من جنة التجربة .

---

(١) الصارخ والصريخ : المستغيث . الاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والصريخ : المغيث والمستغيث . (لسان العرب ـ مادة : صرخ).

(٢) السوءة: ما يقبح إظهاره وينبغى ستره . أى : يغطى عوراتكم ويسترها . (القاموس القويم ١/ ٣٣٤).

(٣) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون وكلها تناسب قوله تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾﴾ (الإسراء) ، معك ليؤيدوك . (القاموس القويم ٢/ ٩٨) .

توبة الله على آدم :

ولكن الله عز وجل الرحيم بعباده أعدَّ للمذنبين منهم مغفرة لذنوبهم ، وشَرَع التوبة للعُصَاة ، وكان أول مَنْ تاب عليه هو آدم عليه السلام ، فقال تعالى:

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ(١) رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

إن بعض الناس يقول : إن آدم قد عصى وتابَ الله عليه . وإبليس قد عصى فجعله الله خالداً فى النار .

نقول : إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟

إنه أكل من الشجرة المحرَّمة ، وعندما علم أنه أخطأ وعصى لم يُصِرّ على المعصية ، ولم يَرُدّ الأمر على الآمر ، ولكنه قال : يا رب أمرك ومنهجك حق ، ولكننى لم أقدر على نفسى فسَامحنى .

اعترف آدم بذنبه ، واعترف بضعفه ، واعترف بأن المنهج حَقٌّ ، وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى ، ولكن إبليس رَدَّ الأمر على الآمر ، قال :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)﴾ [ص]

وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

(١) اجتباه: اختاره واصطفاه . (لسان العرب ـ مادة : جبى) .

وقال : ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

فإبليس هنا رَدَّ الأمْر على الآمِر ، لم يعترف بذنبه .

فإيَّاك أنْ تردَّ الأمر على الله سبحانه وتعالى .

فإذا كنتَ لا تصلى ، فلا تَقُلْ : وما فائدة الصلاة ؟

وإذا لم تكُنْ تزكِّى .. فلا تَقُلْ : تشريع الزكاة ظلم للقادرين .

وإذا كنتَ لا تطبق شرع الله .. فلا تَقُلْ : إن هذه الشريعة لم تَعُدْ تناسب العصر الحديث .

فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله ، ولكن قُلْ : يا ربى إن فَرْضَ الصلاة حَقٌّ ، وفَرْض الزكاة حَقٌّ ، وتطبيق الشريعة حَقٌّ ، ولكننى لا أقدر على نفسى ، فارحم ضَعْفى يا ربّ العالمين .

إنْ فعلتَ ذلك تكُنْ عاصياً فقط .

وقد يقول قائل : ما دام الحق سبحانه شرع التوبة ، فلأفعلْ ما أريد من المعاصى ، وبعد ذلك أتوب .

نقول له : إنك لم تلتفتْ إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أنْ تتوبَ ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية .

وعليك أنْ تلتفتَ إلى دِقّة النصِّ القرآنى :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ[1] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يفعل المعصية ، ويُخطِّط لها ، ويفرح بها ، ويُزْهَى بما ارتكب ، ويفخر بزمن المعصية .

وهناك مَنْ تقع عليه المعصية ، وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ، ويضرب نفسه ويُعذِّبها ويتساءل : لماذا فعلت ذلك ؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة مَنْ عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أنْ يحصلَ على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إنْ يذهب إلى باريس حتى ينغمسَ فى اللهو ، وعندما يعود يظلّ يُفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين. إذن : هو إنسان وقعتْ عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أنْ هدأتْ شِرّة[2] الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استترَ من زمن المعصية .

هكذا نرى الفارقَ بين المخطِّط للمعصية ، وبين مَنْ وقعت عليه المعصية .

---

(١) قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . (تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٣) .

(٢) الشرة : النشاط والرغبة. وشرة الشباب : حرصه ونشاطه . (لسان العرب ـ مادة : شرر) .

والله سبحانه حين قَدَّر أمر التوبة على خَلْقه رحم الخَلْق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلاَّ لَغرق العالمُ فى شرور لا نهايةَ لها ، بدايةً من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحرافَ عملاً له .

والمهم فى التائب أنْ يكونَ قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدد معنى «من قريب» قال :

«إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]»[2] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]

إن إبليس قال ذلك وظَنَّ أنه سيُهلك البشر جميعاً ، ويُوقِعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلَصهم له ، لكن الله سبحانه خيَّب ظَنَّه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد .

فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة ، فماذا يستفيد المجتمع ؟

---

(١) الغرغرة : تردد الروح فى الحلق . (اللسان ـ مادة : غرر) وهو قوله تعالى : ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة] وذلك حين الاحتضار .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب . والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان (٢٤٤٩ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ، لأنه تاب وقت ألاَّ شَرَّ له ، لذلك فعلى العبد أنْ يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى.

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ .. (١٧)﴾ [النساء]

تأمل كلمة (إنما التوبة على الله) تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً أو مَدِيناً ، وأحال دائنه إلى غنىّ من العباد فإن الدائنَ يفرح لأن الغنى سيقوم بسداد الدَّيْن وأدائه إلى الدَّائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ؟ إنه قد أحالَ التوبة على نفسه لا على خَلْقه ، وهو سبحانه أوجبَ التوبة على نفسه ، ولا يملك واحد أنْ يرجعَ فيها .

ثم قال : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

أى : أن العبدَ يرجو التوبة من الله .

والحق سبحانه يُعلِن للناس فى قرآنه :

﴿نَبِئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورتُه وعظمتُه ، ولا يُقال (نبئ) فى خبرٍ بسيط ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

وقال :

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾ [ص]

وهو الإخبار بنبأ الآخرة ، وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتعون بخيْراتها خالدين فيها .

والحقُّ سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس ، ولا يمكن أنْ تسلمَ النفسُ من بعض الأخطاء والبذنوب والوَسْوسة ، بدليل أنه سبحانه قد حرَّم الكثير من الأفعال على المسلم ، حمايةً للفرد ، وحمايةً للمجتمع أيضاً ؛ ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمِن .

فقد حَرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقةَ والزِّنا وشُرْب الخمر وغيرها من الموبقات[1] والخطايا والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض.

وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرّمًا ومُجرِّماً لمَنْ يفعل ذلك ، كما يُلزم كُلَّ المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، ألاَّ يُؤرّق نفسه بتلك الغفلات ، فسبحانه رءوف رحيم .

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وبق الرجل : هلك . قال الفراء : أوبقت فلانًا ذنوبه أى أهلكته . (لسان العرب ـ مادة : وبق). وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ . قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩) كتاب الإيمان .

والحق سبحانه لا يُغلق باب التوبة أمام العاصى ، فلو لم تُشرع التوبة والعفو والمغفرة من الله لَزَادَ الناس فى معاصيهم وغرقوا فيها وتمادَوْا فى الشَّرِّ.

إن الله تبارك وتعالى حين يفتحُ باب التوبة يريد لحركة العالم أنْ تسيرَ ، هَبْ أنَّ نفسًا غفلتْ مرة ، أو قادتْها شهوتُها مرة إلى معصية ، أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء .

لو لم تكُنْ هناك توبة ومغفرة لانقلبَ كل هؤلاء إلى شياطين ، ولكن الحق سبحانه يُطمئن المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرَّة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تُخرِجه من حظيرة التقوى ؛ لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين .

فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (آل عمران)

فالفاحشة التى تكون من نَزْغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تُخرِجهم أبدًا عن وَصْفهم بأنهم مُتقون ؛ لأن الحق سبحانه هو الغفور :

﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ... ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه وتعالى يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أن يُراعُوا حقوقه

كما يجب أنْ تُراعى ؛ فـلابُدَّ أن تُفلتَ منهم أشياء ، وهو سبـحانه وتعالى يعلم ذلك ؛ لأنه خـالقه ، فـأمرهـم ـ جَلَّتْ حكمتـه ـ أنْ يستـغـفروه ، لِيُكفِّـروا عن سيئاتهم .

❑❑❑

obeikan.com